

## الأخلاق والهوية الإنسانية -قراءة في فكر المفكر طه عبد الرحمن-

الدكتور حفيظ سليمان<sup>(1)</sup>

### خلاصة المقالة:

تناولت هذه المقالة مجموعة من الأفكار الرئيسة التي تخصّ المسألة الأخلاقية، بمقاربة وجه الحاجة إلى الممارسة الأخلاقية من خلال ثلاثة اعتبارات؛ أهمها التحوّل الذي يشهده العالم في مختلف مجالات الحياة، ثمّ تطرّقت للحديث عن قضايا أخرى لها أهميّة خاصّة ترتبط بالمسألة الأخلاقية؛ كالتفريق بين العقل والشرع ومدى صوابية هذا التفريق، والتفرقة بين العقل والقلب وعدم استقامة تلك التفرقة. ثمّ فصّلت الكلام في أركان النظرية الأخلاقية الإسلامية، وتوصّلت من خلال ذلك إلى أنّنا مطالبون اليوم، أكثر من ذي قبل، بوضع فلسفة أخلاقية إسلامية جديدة تجيب عن أسئلة السائل في العالم المنتظر؛ بتعبير المفكر طه عبد الرحمن.

### كلمات مفتاحية:

الإسلام، العقل، القلب، الشرع، الأخلاق، الإنسان، الهوية، الكونية، الميثاق.

(1) باحث في الفكر الإسلامي، من المغرب.

## مقدمة:

لا خلاف في مقولة «إنه أينما وُجِدَت الأخلاق، فثمة الرقي والتحضر»؛ إذ القيم والمعاني الشريفة مطلوبة في كل زمان ومكان، والمتأمل في السنة النبوية يجد أن الفعل الأخلاقي متأصل في طبيعة الإنسان، حيث روي عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»<sup>(1)</sup>. فالأخلاق أمر مطلوب، بل نجده ﷺ يصرح بأن أحب الناس إليه يوم القيامة أهل الأخلاق الحسنة: «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»<sup>(2)</sup>.

وفي الوقت الذي كثرت فيه العديد من الظواهر السلبيّة في المجتمعات البشريّة، أصبح الحديث عن فضيلة الأخلاق أمراً ضرورياً وملحاً؛ لأنّ الأخلاق تُعدّ من الدعائم الأساسيّة التي يلزم أن يقوم عليها نظام الحياة البشريّة؛ بحيث تسهم في بناء مجتمع متماسك مبنيّ على الاحترام والتسامح بين أفراد المجتمع.

ونظراً إلى أهميّة المسألة الأخلاقيّة ودورها في الرقيّ الحضاريّ، سوف نخصّص هذه المقالة لتقديم مقاربة في تصوّر المفكر المغربيّ طه عبد الرحمن للأخلاق وفعاليتها في بناء مجتمع حضاريّ.

## أولاً: وجه الحاجة إلى الممارسة الأخلاقيّة:

يرى طه عبد الرحمن أنّ الحاجة إلى التأمل في الممارسة الأخلاقيّة من قبل المفكر المسلم باتت اليوم أشدّ منها في أيّ وقت مضى؛ وذلك لاعتبارات ثلاثة؛ هي:

- أنّ الآفات التي تحملها حضارة اللوغوس إلى الإنسان؛ وهي النقص والظلم والتأزم والتسلط، تؤذي الإنسان في صميم وجوده الأخلاقيّ؛ بما

(1) البيهقي، أحمد بن الحسين: السنن الكبرى، لا ط، بيروت، دار الفكر، لا ت، ج10، ص192.

(2) الترمذي، محمد بن عيسى: سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تحقيق وتصحيح: عبد الرحمن محمد عثمان، ط2، بيروت، دار الفكر، 1403هـ-ق/ 1983م، ج3، ح2041، ص235-236.

يأس معه من الصلاح والفلاح في مآله. وهذا يدعوننا إلى الشروع ببناء حضارة جديدة يكون فيها السلطان للإيتوس (الخُلُق) وليس للوُغوس.

- أن العالم، بلا شك، مُقبِلٌ على تحوّل أخلاقيّ عميق، في ظلّ ما يشهده من تحولات متلاحقة في جميع مناحي الحياة الفرديّة وميادين الحياة المجتمعيّة.

- أن هناك غياباً كلياً للمساعي التي تعمل على تجديد النظر في الأخلاق الإسلاميّة؛ بما يجعل هذا النظر يضاهاي الفلسفات الأخلاقيّة الغربيّة الحديثة، ويمكنه من مواجهة التحديّ الأخلاقيّ المقبل؛ وهذا الغياب المؤسف لن يزيد المسلمين إلا تضرعاً في مركزهم.

### ثانياً: معالم النظريّة الأخلاقيّة الإسلاميّة:

انطلاقاً من الاعتبارات المتقدّمة، يرسم طه عبد الرحمن جملةً من المعالم الأساسيّة لنظريّة أخلاقيّة إسلاميّة، وهي بمثابة مسلمات، تسهم في ملء الفراغ الذي قد يلحق الضرر بالمسلمين. ويمكن إيجاز هذه المعالم بالآتي:

#### 1. الصفة الأخلاقيّة للإنسان:

مقتضى هذه المسلّمة حسب طه، أنه لا إنسان بغير أخلاق، يقول: «فلا يخفى أن الأخلاق الحسنة صفات مخصوصة الأصل فيها معانٍ شريفة أو قل: قيم عليا؛ كما لا يخفى أن ليس في كائنات هذا العالم مثل الإنسان تطلّعاً إلى التحققّ بهذه المعاني والقيم، بحيث يكون له من وصف الإنسانية على قدر ما يتحقّق به منها، فإذا زادت هذه المعاني والقيم زاد هذا الوصف، وإذا نقصت نقص»<sup>(1)</sup>. هذه المسلّمة تترتّب عليها ثلاث حقائق: أولاً؛ إن هوية الإنسان ذات طبيعة أخلاقيّة. ثانياً؛ إن هذه الهوية ليست رتبة واحدة بل متعدّدة. والثالثة؛ هويّة الإنسان متغيّرة وليست ثابتة.

(1) عبد الرحمن، طه: سؤال الأخلاق (مساهمة في النقد الأخلاقيّ للحداثة الغربيّة)، ط1، المركز الثقافي العربي، 2000م، ص147.

## 2. الصفة الدينية للأخلاق:

مقتضى هذه المسلمة للأخلاق الإسلامية أنه لا أخلاق بغير دين؛ وهنا يرى طه عبد الرحمن أن هذه المسلمة لا يطبقها كثير من الناس؛ كأصحاب التوجه العلمانيّ المقرون بسلطان العقل، والتوجه النাসوتيّ المقرون بقيمة الإنسان بعيداً عن الألوهية، وغيرهما. و«يكفي أن نشير إلى أن الأخلاق قد تنبني على الدين بطريقتين اثنتين؛ أحدهما: الطريق المباشر، ويقوم في تلقي خبر هذه الأخلاق من الوحي الإلهي والتأسي فيها بالرسول ﷺ الذي جاء بهذا الوحي، والثاني الطريق غير المباشر، ويقوم في اقتباس الأخلاق من الدين، مع العمل إلى إخراجها عن وصفها الديني أو مع التستر المبيت على أصلها الديني»<sup>(1)</sup>. ويترتب على هاتين المسلمتين أنه «لا إنسان بغير دين»، ومن ثمّة يمكن تعريف الإنسان بأنه الكائن الحيّ المتديّن؛ لكون الهوية الإنسانية في حقيقتها هوية دينية.

## 3. عدم الفصل بين العقل والشرع:

اعترض طه عبد الرحمن على تسليم فقهاء المسلمين بالفرق بين العقل والشرع؛ كقولهم: يجوز شرعاً وعقلاً، أو قولهم: يجوز في العقل ولا يجوز في الشرع، فذكر اعتراضين على هذه التفرقة؛ أولهما: الراجح أن هذه التفرقة لم تحدث في هذا الخطاب، أو على الأقل لم تتقرر فيه، إلا بعد استئناس المسلمين ببعض الأفكار اليونانية التي نشرتها بين ظهرانيتهم المدارس اللاهوتية في الشام والعراق وفارس... فكانوا يعدّون مجموع ما نقل عن اليونان بمنزلة نتاج العقل الصريح، وأن ما جاء به الشرع فله منزلة ما ليس من نتاج العقل. والاعتراض الثاني، «أنّ الذي يفرّق بين العقل والشرع يقع في مغالطة الإبهام؛ ذلك أنه لا يبيّن الوجه الذي تحصل به المقابلة بين العقل والشرع»<sup>(2)</sup>. ويرى طه عبد الرحمن أنه لا يمكن

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص 148.

(2) م.ن، ص 150.

التفريق بينهما؛ لكون العقل الإنساني صادراً عن الله تعالى، وكذلك القول الشرعي؛ فالله تعالى هو الموجد لهما.

#### 4. عدم الفصل بين العقل والقلب:

يرى طه عبد الرحمن أنّ التفريق بين العقل والقلب لا يستقيم البتّة، وذلك من خلال اعتراضين اثنين: أولهما؛ أنّ ذلك الفصل أفضى إلى تشييء العقل؛ وكأنّه ذات داخل جسم الإنسان، مع العلم أنّ ليس في القرآن أو في الحديث الشريف ما يؤيد ذلك التشييء، «بل إنّ ما نجده هو، على العكس من ذلك، شواهد تنفي هذا التشييء، فقد جاء فعل العقل فيها مسنداً إلى القلب؛ بوصفه الفعل الذي يختصّ به، كما تختصّ العين بفعل النظر، وتختصّ الأذن بالسمع، فيكون الواقع في تشييء العقل كمن يُشيئ النظر أو السمع...»<sup>(1)</sup>. والاعتراض الثاني؛ أنّ هذا الفصل بين العقل أفضى إلى الغلوّ في تفقيه الممارسة الدينيّة؛ والمراد بذلك «التقنين الفقهي» لأفعال المكلفين؛ بما يجعل الاعتبار فيها أساساً لظاهر موافقتها للأحكام المقرّرة، مع إهمال المعاني الخُلقية التي تنطوي فيها، والتي لو تصوّرنا هذه الأحكام مجردة من إفادتها، لصارت أحكاماً لاغية، والحال أنّ الناظر في النصّ الشرعيّ الأصليّ لا يسعه إلا أن يلحظ بأنّ الحكم الواحد من أحكامه ينضبط دائماً بصفة خُلقية أو أكثر، يتوجّب على المكلف أن يحصلها، فيكون الأصل في الحكم الفقهيّ هو القيمة الخُلقية<sup>(2)</sup>. وعليه؛ يكون العقل فعلاً قليباً صريحاً، وكلّ فعل قلبيّ فهو فعل خُلقيّ تتحدّد به إنسانيّة صاحبه؛ حسب تعبير طه عبد الرحمن.

#### 5. عدم الفصل بين العقل والحسّ:

يرى طه عبد الرحمن أنّ التفرقة بين العقل والحسّ سادت مختلف شعَب

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص152.

(2) م.ن، ص153.

المعرفة الإسلامية، فعدّوا العقل والمعقول أشرف، والحسّ والمحسوس أخسّ، ويردّ طه على هذه التفرقة، بأننا «لا نجد لهذه التفرقة أصلاً في النصّ الشرعيّ؛ كتاباً منزلاً أو سنّة مطهّرة، بل كلّ الشواهد تدلّ على أنّ هذا النصّ يصل بين العقل والحسّ وصلّاً قوياً، بحيث يكون في الحسّ عقل، وفي النظر عقل، وفي السمع عقل، وفي النطق عقل، وأمّا إذا لم يكن في الحسّ عقل، فلا يُعدّ حسّاً...»<sup>(1)</sup>، ف«الفصل بين العقل والحسّ أفضى إلى تقديس العقل؛ بما يقرّب من التأليه، حتّى إنّ هذا الكلام يجوز بهذا الصدد عن نوع من الوثنيّة العقلانيّة... وباختصار؛ فإنّ الفعل الحسّي كالفعل العقليّ؛ يصدر عن القلب، فهو مثله يحمل أسباباً عقليّة؛ كما إنّ الفعل العقليّ، على العكس من ذلك، يحمل أسباباً حسّيّة؛ ولا مسوّغ للمفاضلة في الطبيعة بين الفعلين، ولا بالأولى لتمجيد أحدهما على الآخر»<sup>(2)</sup>.

### ثالثاً: أركان النظرية الأخلاقية الإسلامية:

يرى طه عبد الرحمن أنّ الممارسة الأخلاقية تتبع أحد طريقتين؛ إمّا طريق الإلزام؛ وهو الأوامر والنواهي التي تُفرض من خارج على إرادة الإنسان، وإمّا طريق الاعتبار؛ وهو عبارة عن القيم التي يستنبطها الإنسان تلقائياً ممّا يشهده من أفعال ويتلقّاه من أقوال، وطريق الاعتبار هو الطريق الأنسب للإنسان؛ وذلك لسببين اثنين؛ أحدهما أنّ قلب الإنسان ينفر من أن يأمره أحد؛ لشدّة تشبّثه بالحرّيّة، وعليه؛ فالإنسان كلّما تلقى مضمون حكم خُلقيّ بغير صورة الإكراه يكون أكثر استعداداً لقبوله. والثاني «أنّ الحياة الخُلقيّة للإنسان ليست لحظات منفصلة في ما بينها، تحكم كلّ لحظة منها أوامر أو زواجر معيّنة، وإنّما هي واحدة من الأفعال التي تشكّل تاريخاً خاصّاً بصاحبها؛ وبهذا يكون كلّ فعل خُلقيّ عبارة عن حدث

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص154.

(2) م.ن، ص155-156.

في هذا التاريخ، وتكون هوية الإنسان قائمة، لا في هذه الفترة أو تلك من فترات تاريخه، وإنما قائمة في هذا التاريخ بكامله منذ ولادته إلى نهايته»<sup>(1)</sup>. وهنا، يرى طه عبد الرحمن ضرورة الأخذ بطريق الاعتبار؛ أي إيراد الأحكام الخلقية في صورة أخبار لا صورة أوامر، صورة قصص لا صورة نسق؛ لأن «الأخلاق أفعال حيّة؛ والأفعال الحيّة هي تاريخ؛ والتاريخ لا يحيا إلا بالقصة؛ فتكون أخلاق الإنسان هي قصته التي تحدّد هويته»<sup>(2)</sup>. وبذلك يدعو إلى الاجتهاد في عرض مضامين الأخلاق الإسلامية في صورة أخبار محمّلة بالإشارات، وأحداث غنيّة بالدلالات، ليركّز على جموع ثلاثة: الجمع بين العقل والشرع، والجمع بين العقل والقلب، ثمّ الجمع بين العقل والحسّ.

### 1. الميثاق الأول والأخلاق الكونية:

يرى طه عبد الرحمن أنّه لا يمكن الوصل بين العقل والشرع إلا إذا جرى بين العاقل والشارع ما يشبه الاتفاق، على أساس أن يكون مضمون اتفاقهما هو أن ما يدركه الأوّل هو نفسه ما يُقرّه الثاني، والعكس بالعكس. وينبغي التنبيه إلى أن الشارع هو الله تعالى؛ ويستحيل في حقّه نقض الاتفاق، وهنا يجب على الإنسان أن يكون اتّفاقه عبارة عن تعهد ملزم. ويؤصّل طه عبد الرحمن لذلك بالاستشاد الإلهيّ يوم خاطب الله بني آدم كافة، وهو في عالم الغيب، قائلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فأجابوه أجمعين شاهدين على أنفسهم: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾؛ ذلك هو الميثاق الذي أخذه الشارع الأسمى من العقلاء وعقولهم. والأخلاق التي ينتجها هذا الميثاق تتّصف بالخصائص التالية:

أ. أخلاق الميثاق الأول أخلاق مؤسّسة؛ أي إنّ العقل هو الذي يطلب هذه الأخلاق، وهو ليس مؤسّساً لها؛ وبالتالي فالمؤسّس لها هو الشارع.

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص156.

(2) م.ن، ص175.

ب. أخلاق الميثاق الأول متعدية إلى العالم كله؛ أي إن هذه الأخلاق لا تخص صلاح الفرد الواحد، ولا الأمة الواحدة؛ وإنما تخص صلاح البشرية كلها؛ «ذلك أنها ترفع همّة الإنسان إلى أن يأتي بأفعاله على الوجه الذي يجعل نفعها يتعدى نفسه وأسرته ووطنه إلى العالم بأسره، بحيث تكون كل بقعة من العالم وطنًا له، ويكون كل إنسان فيها أخًا له، ويكون كل كائن سوى الإنسان نظيرًا له في الخلق. انظر كيف إن الشارع الإلهي أخذ الميثاق من البشر، وهم في مشهد واحد؛ بوصفهم من صلب واحد، ينزلون إلى أرض واحدة!»<sup>(1)</sup>.

ج. أخلاق الميثاق الأول شاملة لكل أفعال الإنسان؛ أي لما كانت كل أفعال الإنسان صادرة عن عقله الذي أعطى هذا الميثاق؛ لزم -إذًا- أن تشملها هذه الأخلاق جميعًا؛ بلا استثناء.

## 2. القلب والتطهير الأخلاقي:

يرمز القلب في الممارسة الإسلامية إلى ذات كامنة في الإنسان تعبّر عن حقيقته، وتصدر عنها أفعاله كلها؛ إذا صلحت صلح الإنسان كله، وإذا فسدت فسدت الإنسان كله. وهنا، يتحتم التصدي لهذه الذات الخفية في الإنسان ومباشرة إصلاحها، «بيد أن أحقّ الذوات الخفية بهذه المباشرة إنما هي الذات الخفية للإنسان الأول، والإنسان الأول على نوعين اثنين: الإنسان الابتدائي -أو إنسان الفتح-؛ وهو الإنسان الذي تلقى أول طور من أطوار تحقيق ميثاق الجمع بين العقل والشرع -أي الطور الفاتح-؛ ألا وهو أبو البشر آدم عليه السلام! والإنسان النموذجي -أو إنسان الختم-؛ وهو الإنسان الذي تلقى آخر طور من هذا التحقيق للجمع بين العقل والشرع -أي الطور الخاتم-؛ ألا وهو سيّد البشر محمد صلى الله عليه وآله! ولما كان هذا الطور النهائي الطور الأكمل والأتم؛ فقد استوجب أكثر من غيره العناية بهذه الذات الخفية»<sup>(2)</sup>.

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص 158.

(2) م.ن، ص 160-161.



## 3. تحويل القبلة والأخلاق الحركية:

يرى طه عبد الرحمن أنّ المتأمل في حادثة تحويل القبلة، لا بدّ له من أن يجد أنّ الأخلاق التي تولّدها تتّصف على الأقلّ بالخصائص التالية:

أ. أخلاق القبلة أخلاق إشاريّة؛ حيث «يقع التوجّه إلى القبلة عند الصلاة؛ وفي هذا مفارقة عجيبة؛ ذلك أنّه ليس في الأجسام أدلّ من محلّ القبلة على معنى الحسّ والمكان والجهة»<sup>(1)</sup>؛ فالتوجّه نحو القبلة توجّه محسوس، والإنسان يرى في ذلك معقولاً وهو يؤدّي صلواته.

ب. أخلاق القبلة أخلاق انفتاحيّة: وسمّيت القبلة كذلك لخاصّيتين اثنتين: أولاهما الاستقبال؛ فهي الجهة التي يستقبلها المصلّي، وثانيهما المقابلة؛ فهي الجهة التي يقابلها وتقابله. «وعلى قدر المتوجّه إليه تزداد قيمة الانفتاح عليه كما تزداد واجباته. ولما كان المتوجّه إليه حسّاً: البيت، والمتوجّه إليه عقلاً: الحامي له؛ كان هذا الانفتاح أنفع أشكال الانفتاح وأوجبها للأدب. ولا أقدر على أن ينهض بحقوق هذا الأدب من المتوجّه الذي يكون قد اجتاز عمليّة شقّ الصدر، هذا النهوض الذي يجعل أخلاقيته تزداد بما لا يزداد به غيرها»<sup>(2)</sup>.

ج. أخلاق القبلة أخلاق اجتماعيّة: تعتبر القبلة مركز اجتماع بمعنيين اثنين؛ أحدهما: أنّها الوجهة التي يستقبلها المسلمون أهل الميثاق، والثاني: أنّها الوجهة التي يقصدها أهل الاستطاعة كلّ سنة. «وجملة القول في حادثة تحويل القبلة أنّها تمدّ الإنسان بأخلاق تجعله يتوسّل بالعبرة المحسوسة؛ للانتقال إلى الإشارة المعقولة؛ كما تجعله يطلب الانفتاح والتعرّف على الأشياء من حوله، ويندفع في الحياة الجماعيّة متقلّباً مع أطوارها المختلفة؛ أي إنّها تمدّ الإنسان بأخلاق تخرجه إلى العالم؛ دلالة، ومحيطاً، ومجتمعاً؛ وبهذا، تكون أخلاق تحويل القبلة

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص 165.

(2) م.ن.

هي الأخلاق الحركية بحق، وليس العالم المنتظر بأقل حاجة إلى أخلاق الحركة منه إلى أخلاق العمق»<sup>(1)</sup>. ومن هنا، نكون قد وقفنا على مكانة القبلة؛ باعتبارها تاريخاً أخلاقياً للإنسان.

«إننا مطالبون، أكثر من ذي قبل، بوضع فلسفة أخلاقية إسلامية جديدة تجيب عن أسئلة السائل في العالم المنتظر؛ وقد اجتهدنا في استخراج بعض الأصول العامة التي يمكن أن تُبنى عليها مثل هذه الفلسفة؛ فكان أن انطلقنا من مسلمتين أساسيتين؛ هما: لا إنسان بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير دين، بُنيت عليهما النتيجة الحاسمة؛ وهي: لا إنسان بغير دين»<sup>(2)</sup>.

### خاتمة:

لقد أبدع المفكر المغربي طه عبد الرحمن في تقديم رؤية خاصة عن المسألة الأخلاقية، من خلال دعوته إلى بناء حضارة جديدة يكون فيها السلطان للإيتوس، مؤكداً على قضية جوهرية قوامها رفض الفصل والتفرقة بين العقل والشرع، وبين العقل والقلب، وكذلك بين العقل والحس، ومستنتجاً أن «لا إنسان بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير دين»؛ ما يعني أن المسألة الأخلاقية هي هوية الإنسان.

(1) عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، م.س، ص 166-167.

(2) م.ن، ص 169.